

## ذاكرة لا تفنى

بقلم: منيرة شهابي

كأنه يوم القيامة، بس جاي علينا لحالنا، باليرموك... فجأة ما ضل حجر على حجر.

كل العالم عم تركض وتبكي... يلي فاقد أهله و بده يتظمن وهو ضمناً كمان مفقود، ضايح بحاله، مش عارف شو بدو وشو يعمل ومش عارف شو نوع شعوره وشو لازم يحكي وعم يحس بنفسه بس مش نفسه، موجود ومش موجود، كأنه مغيب عن وعيه، بس عم يتحرك، في شي جواته عم يحكيه امشي كمل، بالحركة النجاة وبالوقوف الموت.

عم يركض ومش عارف وين اجره ماخديته، ومش عارف إذا في خلاص أو لأ، معقول هاي النهاية؟ لأ أكيد رح نعيش، معقول هاد ما يكون حقيقة؟ بلكي كابوس، بلكي هلوسة، بلكي أي شي، مش مهم هلاً تعرف، مش مهم تفهم، المهم ضلك ماشي، اركض وانفد بريشك، رح تيجي لحظة وبالأخر تفهم شو هاد كله، المهم لازم تعيش كرمال هاي اللحظة.

صراع جوات كل واحد، أفكار ضايعة ومشاعر فايطة ببعضها، والدخان جواتنا، والدخان براتنا، والدخان عم ينتشر بكل مكان.

صوت القصف كان مرعب للكبار قبل الصغار، بس الكبير فينا لازم يداري خوفه ويخبيه، لازم يدعس على شعوره كرمال الصغير، لازم يحافظ على صورته وعلى ثباته كرمال أطفاله، هو بعينهن البطل الخارق اللي ما بيخاف، هو المخلص اللي رح يحميهم ويطلعهم من هاد كلو، وهني مش عارفين انو جواته طفل صغير خايف مثلهن بس ما في كبير يحميه. فعلاً بقول يا ريت الكبار في عندهن هني كمان كبار يحمون ويخافوا عليهن ويكابروا كرمالهن.

ركضنا على الملاجئ بسبب القصف لأنو قالوا طيران حربي. و كانوا القصف الجوي بيقتل بس القصف المدفعي مسالم، كأنه الموت ببيجي عامودي مش أفقي. هاي كانت أول مرة يتم قصفنا بالطيران الحربي. بعد ما غابت الشمس رجعنا على البيت لنضرب وراق البيت للاحتياط. كنت عم ببرم بالبيت وبتأمله، بتأمل كل شي فيه، كأنني أول مرة بشوفه (أو من جواتي كنت حاسيتها يمكن آخر مرة) كنت عم بمشي فيه ونفسي أحضنه، أو يا ريت لو هو يحضني! كنت عم شوفه يمكن كأنه عم بودعه، ما يعرف...

وبعدها بلشت القذائف والاشتباكات بكل زاوية بالمخيم، كأنه المخيم عم يصرخ من كل جهة، كأنه عم ينادينا، كأنه عم يستنجد فينا، بس كيف نحكيه انو احنا ناظرين يسكت صريخه لحتى نهرب منه، كيف نحكيه هو أه عزيز علينا بس روحنا بتضل أعز.

كنا أول ما نسمع صوت صفيرة القذيفة نتظمن إنها مرقت من فوقنا ومش رح تنزل على رأسنا، بلحظتها كان في مثل نوع انتشاء بالشعور، انو مزطنا منها، يا ريت كان فينا بلحظتها نقوم ونحتفل انو طريق القذيفة ضيعنا، بس ما تلحق تكمل فرحتنا غير نتذكر انو بعد في كثير غيرها، وكأنه عم نلعب غميضة مع الموت، يكمشنا أو يضيعنا!

كانت ليلة مرعبة فعلاً أول مرة بتمر علي ليلة هيك ريحة الموت عم تفوح من كل مكان، وعم تعشش بكل زاوية بالمخيم. كنا كل شوي نسمع عن نبأ استشهاد حدا بالمخيم، والأخبار عم توقع علينا أشد من القذائف، وفعلاً القذائف أرحم كانت، شوي وبتتطفى وبتبرد نارها، الخبر نارو بعدها بتحرقنا لهلاً.

كان عنا غرفة صغيرة محصورة جوا البيت كنا نتخبى فيها أول ما نسمع ضرب القذائف. كانت ليلة شتوية مطرها قوي وقاسي. بس المطر ما كان مي، المطر كان قذائف، وصواريخ. هالمطر كان كفيفل بانو يروي المخيم كله بدم ولادو، بس وقتها ما كنا بنعرف شو الحصاد اللي رح نجنيه من هيك زرع!!

ومع هدوء وسكينة الفجر انتشر خبر إلزامية الخروج القسري من المخيم أو الأطراف المتنازعة رح تدبج النساء والأطفال مثل ما عملوا بمناطق تانية. عادةً هالأخبار ما بتخوف النساء و الأطفال قد ما بتخوف الرجال. معقول الشعور بالمسؤولية يكون أقسى من الموت نفسو!

عشان هيك اجتمع الرجال وقرروا انو لازم يواجهوا بس أول شي لازم يطلعوا النساء والأطفال برا المخيم حتى ما يستخدموهن المسلحين ضدن. رجالنا كانت مثل أي رجل شرقي عربي خوفه على أرضه وعرضه بيمشي بدمه.

بس لا فعليًا، نحنا مش لحالنا، قبلنا كانوا هيك، عاشوا مثل نكبتنا هاي.

هاي المشاهد شفرتها من جديد وسمعتها بحديث للحجة آمنة السيد وهي توصف ليالي النكبة وكيف مرت عليهن الأيام، وأديش كانت ثقيلة وأديش كان الوقت بطيء، الليل طويل والنهار قصير، هاي اذا كان فيها نهار من أصله.<sup>1</sup>

بتحكي الحجة كانوا اليهود يضربونا من مرتفعات صغد بالمدافع والقذائف يا خالتي، كانوا يضربونا بالليل لنخاف أكثر لينتشر الرعب أكثر.

كل ما يشتد ظلام الليل وعتمه وسواده كانت المدافع عم تفرع حدود البلدة وتجتازها وتجتاز معها قلوب الأطفال والنساء بوقتها كنا نهرب ونروح على بلدة رميش كانت أقرب شي علينا وبقى فيها لتبرد نار البارود يلي كانت تحرق قلوبنا بصوتها وبكل طلقة تطلع منها و رجالنا كانت مثل الأسود عم تدافع عن أرضها وعرضها، عم تدافع على عرين حياتها. ننظر ليطلع الصبح لنرجع على بلدتنا. وهالمسلسل كان ينعاد كل كم يوم بس ما كنا نفقد الأمل بعودتنا .

وبليلة صحينا على صوت الناس بالشوارع عم تصرخ ، عم تنده اليهود فاتوا علينا اصحوا اصحوا... كانت اليهود بوقتها عم تزرع خبثها وسمها بين بيوتنا، هاي هي عادتهن المكر مثل الثعالب.

زرعوا الألغام المتفجرة بين البيوت كان بدهن يجرفوا أرواحنا ويوخدوا الأرض بس مكرهن رجع خايب عليهن ومن خوفهن هربوا أول ما سمعوا بصوت القواص من قبل الفلسطينية لما كشفوا أمرهن فرجعوا لأدراجهم دون حول منهم ولا قوة رغم انو القواص طلع من بارودة وحدة كانت تخوف لليهود ظنوا بأنوا القرية فيها سلاح وطالما في سلاح رح يكون في مواجهة بين الطرفين ففشلت خطة تلغيم البلدة. بس الخوف بلش يتغلغل بنفوس النساء والأطفال كل نفس وكل تنهيدة كانت تتطلع منهم تحمّل الرجال مسؤولية أكبر فوق كل المسؤوليات الموجودة .

وبليلة الجمعة، الليلة المباركة يلي الناس بتنام بهالليلة وهي عم ترسم لنهار جديد، نهار متعارف عليه يكون بين الاهل والأحباب واللمات الحلوة بس عنا كانت هالليلة غير عند كل العالم.

آمنة السيد، مواليد 1936 ، صفد-فلسطين، أرشيف النكبة<sup>1</sup>

<https://libraries.aub.edu.lb/poha/Record/4161>

سقطت صغد سقطت المنطقة كلها، وبلدتنا صار فيها مذبحه صارت خلال المقاومة يلي كانت بين رجالنا واليهود. بوقتها ما عاد في خيار ثاني قدامنا يا الاستسلام والخضوع لليهود أو نعيش وننقذ الوطن. كنا متعودين على مشهد القوافل يلي كان يصير كل سنة لما الناس تزوح على الحج بس القوافل يلي كانت بهديك الليلة كانت قوافل حاملة معها تشرد وضياع وهلاك، حاملة وجع، ما كنا منعرف انو رح نحمل معنا وجع وقهر لأجيال. خبرونا انو رح نطلع سبعة أيام وبعدها نرجع وكل شي رح يرجع زي ما كان.

سبعة أيام حملوا معهن أربعة وسبعين سنة... وطلعنا من المخيم على وعد أسبوع ومنرجع. نفس العبارة المشهورة عند الفلسطينيين "كلها أسبوع يا يا أم أحمد". أسبوع الـ ٤٨ طوّل ٧٤ سنة ونفس المشهد عم يتكرر: الأهالي وهي عم تركض، المشهد المهيب الرهيب، قوافل الألم والتشرد، البحث عن طوق النجاة والأمان. تركنا البيوت والأرض والمال وطلعنا وحاملين معنا وثائق تردنا بعد طلعتنا لأسبوع يلي ما كانت تخلص أيامه.

لما كنت صغيرة كان كل ما حدا حكى قدامي نكبة ما أفهم شو معناها، كنت أحسها كلمة مجردة، شي مش واضح، فكرة مجهولة، كنت كل ما أسأل حدا يقلي يوم اليهود طلعوننا من فلسطين. كثير كنت أتخيل المشهد بس كان يضل ناقص، ولا مرة تخيلت معه شعور الذل والقهر، شعور الضياع شعور العجز وشعور الخوف والوجع هاد. بس لما عشت هالأحداث والمشاعر كلها باليرموك، أدركت مضمون كلمة نكبة. نكبة اليرموك كانت صورة مصغرة أو مشهد واحد من مشاهد نكبة فلسطين، عاشها نفس الشعب، بدل المرة مرتين كان حظهن من هاد التهجير، واللي ما عاش التنين سوا وكان حظه انو ياخده الموت قبل الثاني، فهو عاش الأولى وخبرها لولاده مفكرها ذكرى وانقضت، ما كان حاسب انو ولاده رح يرجعوا يدوقوا من نفس الكاس المر اللي هو داق وتلّوع منه. النكبة، أربع حروف بكل مخرج حرف فيها موجود وجع شعب بأكمله. نحنا الجيل يلي دفع ثمن ربيع عمره حروب وتهجير وذل.

النكبات بحياتنا مستمرة وكأننا شعب مكتوب عليه يضل منكوب كيف ما راح و وين ما إجا.

سنين مرّت وأوراق خريف هرتّ وبعدها ناظرين ربيع هالعمر يهرول لعنا.